



يعاني الصفّ الثوري من الفُرقة والتصدّع، وهذه الآفة الخطيرة تُطيل الطريق وتضاعف الآلام وتفاقم الخسائر، ولا ريب أن لها أسباباً معقدة متشابكة علاجُها بعيدٌ عسير، ولكن لها أيضاً أسباباً هينة سهلة علاجُها قريبٌ يسير، فإذا فشلنا في علاجها كلها فلا عذر لنا في عدم علاج بعضها الذي نقدر عليه، وما لا يُدرك كله ويدرك قُلّه لا يُترك كله ولا يُترك كله.

تابعت على مدى سنتين المحاولات الكثيرة المتغيرة لجمع الصحف، ووجدت نفسي في بعض الأوقات وسط خلافات اشتَدَ فيها تنازعُ المتنازعين فوصلوا إلى درجة القطيعة واستحالة العمل المشترك، ولاحظت أن الغالبية العظمى من تلك المشكلات لم تنشأ من أسباب حقيقة جوهرية بقدر ما نشأت من التسرّع وسوء الظن ومن الخطأ في تفسير حادثة أو موقف تلبيسَ به أحدُ الطرفين، ولو أن الطرف الآخر منحَ الفرصة لتفسيير الحادثة لزوال اللبس وذهب الجفاء.

لو أن المتنازعين التزموا بالمنهج النبوي الرشيد لارتفاع الخلاف وحلّ الوئام محل الخدام. ما هو هذا المنهج؟ إنه الامتناع عن الظن السيئ والمبادرة إلى سؤال الفاعل عن سبب فعله لما فعل. إنه يكون بسؤال واضح قصير: "ما حملك على ما صنعت؟". خمسُ كلمات لو طرَحَنَ كل واحدٍ فينا في موطن الخلاف لزالت أربعةُ أخماس الخلافات وسلّمت القلوبُ من الضغائن والتقي من كانوا يظنون أنهم لا يلتقيون.

الفضل لأخي العزيز الدكتور معن عبد القادر في بلورة هذا المنهج واستخلاصه من السنة النبوية الشريفة، فقد استقصى جملة من الأحاديث الصحيحة التي طبق فيها نبينا الأكرم عليه صلاة الله وسلامه هذا العلاج العجيب، بدءاً بواحد من أخطر المواقف في حياة الدعوة الإسلامية، في اللحظة التي انتظرها النبي عليه الصلاة والسلام قريباً من ربع قرن، لحظة الحصاد بعد الزرع المُضني والصبر الطويل، يوم الفتح، حينما أقدم أحد أصحابه على عمل هو في مرتبة "الخيانة العظمى"، ولو تم لفُوض الفتح وامتد الصراع الكبير بين معسكرى الحق والباطل ما لا يعلمه إلا الله من الزمان.

لو أن قائداً غير النبي عليه الصلاة والسلام كان في ذلك الموقف، لو كان فيه واحد من قادة الجهاد الشامي اليوم، فكيف سيكون العلاج؟ محكمة ميدانية وإعدام فوري، هذا هو مقتضى "القانون العسكري" الذي تعرفه كل جيوش الأرض. لكن سيد الخلق وأكرم من مشى على الأرض ليس كأي قائد من قادة الدنيا، فهو لم يتعجل بالعقاب ولم يحكم في القضية إلا بعدما منح المتهم الفرصة لكشف السبب الذي دفعه إلى فعل ما فعل؛ قال: يا حاطب، ما حملك على ما صنعت؟

يقول الدكتور معن في مقالته القيمة الجميلة: "ولكن الذي قد لا يعلمه الكثير منا أن هذه العبارة لم تكن جملة عابرة من النبي صلى الله عليه وسلم، بل كانت منها مطرباً أن يسأل صاحب الشأن "لَمْ فَعَلْ ذَلِكَ؟" قبل أن يحكم عليه أو يتخذ بشأنه أمراً. وهذا بعض ما وقفت عليه من سيرته صلى الله عليه وسلم..."

ثم يعرض لنا طائفة من المواقف المتنوعة التي كان كل منها كافياً لحمل أحدها على القيام بتصريف فوري هائج، مواقف لم يتسرع فيها النبي صلى الله عليه وسلم ولم يُبين تصرفه على وضوحها الظاهر، بل بادر أولاً إلى طرح ذلك السؤال العظيم: ما حملك على ما صنعت؟

لن أنسخ المقالة هنا ولكنني سأنسخ رابطها في الختام، وأتمنى أن يقرأها قادة الجهاد وعامة الناس، فكم يُزيل هذا المنهج الرشيد من ألبسِ وكم يرفع من خلافِ وكم يقرب من قلوبِ وكم يحقن من دماءِ، ولو أتَى وعِيناه لَتَعَافَنَا من عيوب كثيرة ولكن الحالُ غيرُ الحال.

\* \* \*

إن كثيراً من الأخبار التي تطير في الفضاء الثوري طول الوقت تُبنى على فهمهما الظاهري المتعجل مواقفُ مصيرية، أكثرُها مواقف سلبية ضارة بالثورة وأقلُها مواقف إيجابية نافعة. قد يتقطع قائدان ويتعثر اجتماعُ فصيليهما في كيان واحد لأن أحدهما سمع أن الثاني التقى بوفد أجنبى، وقد تدخل مؤسستان من مؤسسات الإدارة المدنية في صراع لأن إدراهما ارتبطت بالئتلاف وتلقت منه الدعم، وقد يقرر بعضُ القادة طردَ فصيل من غرفة القيادة المشتركة لأنه سحب عناصره من إحدى الجبهات.

هذه كلها حالات حقيقة كنت طرفاً فيها أو مطلعاً عليها في بعض الأوقات، وقد وفق الله إلى حلها كلياً أو جزئياً بمجرد تفسير الفعل الذي بُني عليه الموقف السلبي. هذا ما حصل في الحالة الأخيرة على سبيل المثال: عند التحقق والسؤال اتضح أن قائد الكتيبة سحب عناصره من الجبهة لأنه رصدَ تقدماً مفاجئاً للعدو عبر ثغرة خفية مَنسِيَّة، ولم يملك الوقت للتنسيق مع الآخرين فأسرع بسحب عناصره وسدَّ الثغرة ومنع تقدم الأعداء منها، ولو تأخر لقضي على الجميع. عندما منح هذا القائد الفرصة لتفسير عمله انقلب لومه إلى مدح، وتشبّث القادة بكتيبيته الصغيرة بعدما أُوشكوا أن يفصلوها من غرفة العمليات.

\* \* \*

منهج ثوري مهم؟ نعم، ولكنه ليس خاصاً بالثورة وحدها، بل هو وصفة نبوية ومنهج إصلاحي للحياة كلها، لدوم الود والوئام

وانتفاء الوحشة والخصام بين الوالدين والأولاد والأزواج والزوجات والإخوة والأخوات، وبين الأقرباء والأصدقاء والشركاء والزملاء والجيران والخلان. تعلّموه تُرْضوا ربكم وتعيشوا في سعادة وسلام.

الزلزال السوري

المصادر: